الاستعارة البيئية في خطاب السيدتين فاطمة الزهراء وزينب الكبرى (عليهما السلام)

أ.د. زينة غني عبد الحسين الخفاجي
ميسم فلاح عبد
كلية التربية الأساسية/ جامعة بابل

Environmental metaphor in the speech of the two ladies, Fatima Al-Zahra and Zainab Al-Kubra (peace be upon them)

Dr. Zeina Ghani Abdul Hussein Al Khafaji
Maysam Falah Abd
University of Babylon / College / Basic Education
Moonf499@gmail.com

Abstract

metaphor Environmental, in light of this theory, is characterized by an interactive relationship between man and the environment. Man - being a speaker - interacts with his metaphorical subject, which is composed of environmental elements, and he - being a party to the metaphor - interacts with the environment, being the other party, which constitutes a living communication between man and the environment. Metaphor is essentially based on experience. The life of a person due to his contact with things, and if metaphor is a natural issue in human thinking by which a person lives, thinks, and expresses, then he takes the elements of this metaphor from the environment surrounding him.

Keywords: environment - metaphor - man

ملخص

الاستعارة البيئية في ضوء نظرية الاستعارة تتماز بعلاقة تفاعلية بين الانسان والبيئة فالإنسان– كونه متكلماً– يتفاعل مع موضوعه الاستعاري المكون من عناصر بيئية ويتفاعل– كونه طرفاً في الاستعارة– مع البيئة كونها الطرف الاخر وهو ما يشكل تواصلاً حياً بين الانسان والبيئة والاستعارة تعتمد اساساً على التجربة الحياتية للإنسان نظراً لملامسته للأشياء وإذا كانت الاستعارة مسألة طبيعية في التفكير الانساني يحيى بها الانسان ويفكر ويعبر بها، فانه يأخذ عناصر هذه الاستعارة من البيئة المحيطة به.

المقدمة:

إن الاستعارة وسيط مهم بين الذهن البشري وما يحيط به من كائنات حيه وغير حيه وداخل هذه العملية التواصلية والذي تتجلى في التواصل الذي يقيمه الانسان بوصفه طرفاً للاستعارة وقد تطورت النظرة الى الاستعارة بعدما كان ينظر اليها على انها مجرد نقل واستبدال وانها تقوم

على علاقة وحيدة هي المشابهة، فالاستعارة في الاساس هي عملية ذهنية تقوم على التقريب بين موضوعين وذلك بالنظر الى احدهما من خلال الاخر.

الكلمات المفتاحية: البيئة – الاستعارة– الانسان

تشكّل الاستعارة البيئية جانباً من الاستعارة الفكرية القائمة في حقيقتها على مقتضيات النظرية التفاعلية، إذ تبرز الاستعارة البيئية العلاقة التفاعلية بين الإنسان والبيئة، فالإنسان يتفاعل مع الموضوع الاستعاري المكوّن من عناصر بيئية، ويتفاعل معها كونه طرفاً في الاستعارة مع البيئة التي تتشكّل فيها.

ومن الأمثلة الاستعارية البيئية ما جاء في خطبة السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) في قولها: "**وكنتم على شفا حُفرة من النار فأنقذكم منها، مذقّة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القد**" [١]، فكثيراً ما تأتي السيدة فاطمة (عليها السلام) إلى استعارة لفظة (النار)، وهي من المكونات البيئية التي يراها الإنسان ويعرف شدتها وهولها، فتأتي إلى استعارة ما هو قريب إلى الإدراك والحسّ، فإذا كان البعد النفسي يؤمن بفاعلية الذهن البشري في بناء المعنى، فإنَّ التجربة هي أساس البناء التفاعلي، وذلك عن طريق العلاقة بين المتكلم و محيطه الخارجي، إذ يؤكد الطرح البيئي "على قيام هذه العلاقة في مستوى معين، أو على الأقل وجود تفاعل بين المتكلم باعتباره خزاناً لمعلومات معينة والمعلومات القادمة من المحيط أو البيئة"[٢].

ففي قولها (حفرة من النار)، ما يساعد على رصد الحواس فتلقي بظلالها على من كان متبّعاً طريقاً مغايراً للحق والفضيلة، فالمجال الذي تشغله الحفرة يمثل رقعةً جغرافية في الأرض لها مساحتها من البيئة، وهذا ما يُشكّل ما يسمّى بمجال المصدر (الحفرة)، ومجال الهدف (النار)، وهي أداة العذاب والهلاك التي سيلاقيها كل من ابتعد عن جادة الصواب، ولم يهتد إلى فعل الخير خلال ذلك. وإذا كانت الاستعارة تعتمد أساساً على التجربة الحياتية للإنسان، نظراً لملامسته للأشياء، فإنَّ تركيز السيدة الزهراء على لفظة (النار) في أغلب المواضع التي تتخذ طابع التهديد والوعيد وسوء المآل لما أساء ولم يُحسن العمل الصالح، بل أساء من حيث يدري ولا يدري، فالنار من التجارب الطبيعية الحياتية التي يعتادها الإنسان و يتفاعل معها يومياً وباستمرار، ممّا يجعلها في تعبيره واستخداماته اليومية، وتركيز السيدة فاطمة (عليها السلام) على رمزية النار ما يخلق في نفس المتلقي الرعب والفزع من النار التي يخشاها في الدنيا، لذلك ترسم صورة العذاب من خلال عذاب النار، التي هي حال النار في الطبيعة، وهذا ما يوطّد علاقة الإنسان بالبيئة، أي الإدراك لما خلقه الله حوله من الموجودات الطبيعية، فقد لا يخطر على بال أحدهم مدى خطورة

النار، فهي مفيدة ومؤذية في الآن نفسه، "وبما أنَّ الاستعارة هي عملية تفاعل، والإنسان والبيئة هما من يشكلان هذه العملية، ذلك أنَّ الاستعارة تدخل في كل سياقات الخطاب اللغوي للإنسان بما يتضمنه من ممارسات ثقافية واجتماعية" [٣] .

كما أنَّ الموضوع الذي تتكلم به السيدة فاطمة (عليها السلام) مأخوذة من البيئة، وغالباً ما يكون طرفا الاستعارة هما الإنسان والبيئة، ذلك أنَّ "تفكيرنا وتصوّرنا النفسي للعالم يأخذ دوراً أساسياً في حياتنا وحقائقنا اليومية، وإذا كان صحيحاً أنّ نسقنا التصوّري في جزء منه، ذو طبيعة استعارية، فإنَّ كيفية تفكيرنا و تعاملنا وسلوكياتنا في كل يوم ترتبط بشكل وثيق بالاستعارة" [٤] .

ومن تركيز السيدة فاطمة (عليها السلام) على استعارية النار للتدليل على العذاب، فمن غير الممكن أن تكون دلالتها في حديثها عن الهلاك الذي قد يؤجله الله عزَّ وجلّ لمن ضلَّ السبيل، ولم يتبع الصراط المستقيم، وفي موضع آخر قالت الزهراء (عليها السلام) "إني قد استقبحتُ ما يصنع بالنساء، إنه يطرح على المرأة الثوب، فيصفها لمن رأى، فلا تحمليني على سرير ظاهر، استريني، سترك الله من النار" [٥] .

إذ نجد من خلال كلامها أنَّ النار مرتبطة بالأفعال اللامحمودة، لذلك تلح على طلب الستر والنجاة من الأذى الذي تفعله النار بمن خالف أوامر الله عزَّ وجلّ، وهي في ذلك تُشير إلى منقصة في الأخلاق لمن يبيع الأثواب للنساء ولا يحفظ أسرار الناس وخصوصياتهم، بل إنه أسرع إلى الثرثرة والحديث عن صفات كل ما رآه.

والمقصود بالاستعارة البيئية قد لا يقف عند حد البيئة الطبيعية (الموجودات الحية واللاحية)، فقد تشمل البيئة الاجتماعية، "فالبيئة إذا هي كل متكامل يشمل إطارها الكرة الأرضية – وهي كوكب الحياة – وما يؤثر فيها من المكونات الأخرى للكون، و محتويات هذا الإطار ليست جامدة، بل إنها دائمة التفاعل مؤثرة ومتأثرة" [٦]

كما أنَّ لطبيعة العلاقة الرابطة بين اللغة والإنسان شيء بالغ للتشاكلات، وتفاعل الإنسان مع بيئته عن طريق النظام الإيحائي للغة يحتاج إلى كثير من النظر في طبيعته وتعقيداته، وهذا الأمر يغدو أكثر إلحاحاً إذا اعتمد هذا التفاعل على الجانب المجازي أو الاستعاري للنظام اللغوي. ومثال الاستعارة البيئية ما جاء عن السيدة فاطمة (عليها السلام) في قولها "فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله عزَّ وجلّ بمحمد ظلمها، وفرَّج عن القلوب بهمها" [٧] .

فكثيراً ما تركّز السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) على ألفاظ (النار، العتمة، الظلمة)، فالرسول (صلى الله عليه وآله) هو الذي أنار عتمة الكون المظلمة، وأخرج الناس من طور الغواية

و الضلال وعدم التنظيم لشؤونهم إلى كل ما فيه صلاحهم وتقاهم، إذ رسم صورة الحياة الصحيحة بكلّ معالمها وأسسها والطرق المؤدية إلى الفوز برضا الله عزَّ جلاله، فانتشل الناس مما كانوا عليه، حيث كانوا فرقاً متعددة، تعبد الأوثان، لا تعرف الله عزَّ وجلّ، فأتى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأنار عتمة الظلام التي كانت مخيمة على النفوس والقلوب.

وكما هو متعارف عليه أنَّ الظلمة موحشة في النفس، تبث الرعب والخوف في الذات البشرية، لأنها لا توحي بأواصر الأمان والسلام، فإنَّ عظيم ما أتى به النبي (صلى الله عليه وآله) قد نقل البشرية وجعل الصفاء والأمان أساس الحياة البشرية، فهذا الاستخدام الاستعاري للبيئة هو نوع من التواصل الحي بين الإنسان والبيئة عبر النظام اللغوي، فالاستعارة عملية ديناميكية تعتمد في نظامها التواصلي على تفاعل الدلالات، كما تعتمد على تفاعل الذات المتكلمة مع موضوعها الاستعاري، ومما لا شك فيه أن السيدة فاطمة الزهراء (ع عليها السلام) في قولها السابق تأخذ من العظمة لما جاء عن النبي (صلى الله عليه وآله) حجّتها في دحض المعادين الذين أساؤوا إلى الخط المستقيم الذي رسمه النبي (عليه الصلاة والسلام)، كما أنَّ التقابل الحاصل بين طرفي الصورة الاستعارية الكامن في قولها (فأنار الله عزَّ وجلّ بمحمد ظلمها) هو الذي خلق أهمية الصورة الاستعارية، فالاستعارات خلق جديد، و ابتكار دائم، يخلقه النظام اللغوي الذي ينتجه الإنسان معتمداً على عناصر البيئة.

وداخل هذه العملية التواصلية والذي تتجلى في التواصل الذي يقيمه الإنسان بوصفه طرفاً للاستعارة، فالسيدة الزهراء في انتقائها الأشياء المعكوسة في البيئة ما يجعلها متفاعلة مع البيئة لتنتج التواصل الحي وذلك عن طريق مستويين، الأول أنها هي من تتكلم وتوجّه الخطاب إلى الطرف الاخر، لتستعيد في نفوسهم ما كان وتشعرهم بالخذلان لما يفعلونه، والمستوى الثاني يقوم على قدرة السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) على أن تجعل من الاستعارة عملية مستمرة وفاعلة وحية تجسّد علاقة الإنسان ببيئته، "يمكن كذلك أن نسقط التصوّر التفاعلي على الطريقة التي ينظر بها الإنسان إلى الطبيعة بوساطة الاستعارة (الطبيعة إنسان)، وعن هذه الاستعارة الكبرى تتفرّع بنيات ينظر بواسطتها الإنسان إلى الأرض وإلى السماء" [٨] .

ومنه أيضاً ما نجده في قول السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) "البشرى في وجه المؤمن يوجب لصاحبه الجنة، و البشرى في وجه المعاند يقي صاحبه عذاب النار"[٩]، فتركيز السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) على (النار) كموجود طبيعي في البيئة هو سبيلها لخلق الصورة الوصفية لجملة العذابات و الهلاك الذي سيلاقيه كل معاند، لم يهتد وضلَّ عن الطريق الصحيح، فالعذاب متضافر مع صورة النار، والذي هو من شأن المعاندين، إذا الصورة قائمة على

التلاحق الدلالي للمفردات الاستعارية (المعاند، عذاب، النار)، وذلك في صورة تضادية مع خلافها (المؤمن، يوجب، الجنة) إذ استطاعة السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) أن ترسم الصورة المفارقة عبر الاستعارة البيئية التي يظهر فيها الإنسان كأحد مكوناتها الرئيسة، وما ذلك كله إلا لتثبيت الحجة التي تتكلم بها (عليها السلام).

ومن الاستعارات البيئية ما يدلُّ على الحر والنار التي يخاف منها كل من رأى شدتها وهولها، ومن قولها عن النيران التي تلتهب وتأكل كل ما حولها ما جاء في خطابها بعد التقديم والتعريف، إذ جاء عن لسانها في الخطبة الفدكية مخاطبة بني قيلة: "إيْهاً بَنِي قَيْلَةَ* أأُهْضَمُ تُراثَ أبِيَ وَأنْتُمْ بِمَرْأى مِنّي وَمَسْمَعٍ، ومُنتدى وَمَجْمَعٍ؟! تَلْبَسُكُمُ الدَّعْوَةُ، وتَشْمُلُكُمُ الْخَبْرَةُ، وَأنْتُمْ ذَوُو الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَالأَداةِ وَالْقُوَّةِ، وَعِنْدَكُمُ السِّلاحُ وَالْجُنَّةُ؛ تُوافيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلا تُجِيبُونَ، وَتَأْتيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلا تُغيثُونَ، وَأنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْكِفاحِ، مَعْرُفُونَ بِالْخَيْرِ وَالصَّلاحِ، وَالنُّخْبَةُ الَّتي انْتُخِبَتْ، وَالْخِيَرَةُ الَّتِي اخْتيرَتْ لنا أهل البيت قاتَلْتُمُ الْعَرَبَ، وَتَحَمَّلْتُمُ الْكَدَّ وَالتَّعَبَ، وَناطَحْتُمُ الْأُمَمَ، وَكافَحْتُم الْبُهَمَ، لا نَبْرَحُ أو تَبْرَحُونَ، نَأْمُرُكُمْ فَتَأْتَمِرُونَ حَتَّى إذا دَارَتْ بِنا رَحَى الإِسْلامِ، وَدَرَّ حَلَبُ الأَيّامِ، وَخَضَعَتْ ثُغَرَةُ الشِّرْكِ، وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ الإِفْكِ، وَخَمَدَتْ نيرانُ الْكُفْرِ، وهَدَأتْ دَعْوَةُ الْهَرْجِ"[١٠] .

فالاستعارة واضحة في قولها (عليها السلام)، فالنيران التي تحدث في ساحة الحرب كناية عن اشتداد هول المعركة، وما تجرّه من صور مأساوية خلالها من صور القتلى بين الطرفين المتصارعين، فأغلب استعاراتها البيئية ما يدلُّ على النار والنيران، الذي يلاقيه أهل العذاب و الهلاك. كما أنَّ الاستعارة تُعدُّ وسيلة مفهومية تُساعد المتكلم على تعزيز الإدراك والمعرفة للواقع، ويعزز الانتماء للبيئة الثقافية و اللغوية، حيث يتم تقبّل الاستعارة من قبل قارئها في لغتها الأصيلة من خلال عملية التقبّل الذهني.

فالنيران التي توقد خلال الحرب مادة بيئية خام، يتفاعل معها الإنسان، والنظام الاستعاري في ظل هذه الصورة الاستعارية يعكس قدرة الإنسان على الأخذ والتفاعل مع ما هو كامن حوله من مؤثرات طبيعية "تقوم الاستعارة في النظرية التفاعلية على مبدأ التفاعل بين طرفيها، أو التداخل الاستعاري، وبفضل هذا التعارف يفقد كل طرف بعض سماته وخصائصه لصالح الطرف الآخر، وفي الوقت نفسه، فإنه يكتسب خصائص من الطرف الآخر، يتشكّل من هذه الخصائص المشتركة في ضوء المؤتلف و المختلف من الطرفين"[١١] .

والاستخدام الاستعاري عند السيدة فاطمة (عليها السلام) اتخذت منه طريقاً إلى القول الجميل والخيال المثير والعاطفة والفكر، إذ استطاعت من خلال الاستعارة الفكرية أن تجسّد المعنوي حتى يغدو كتلة من عالم المحسوسات فاتت بما لاعين رات ولا اذن سمعت، وما يميّز الاستعارة

البيئية ولا سيما توظيف لفظة (النار– النيران) هو أنه من العناصر التي أسهمت في التغلل داخل الخطاب السياسي، وتدعيمه بالخطاب الديني نظراً لما يملك من قوة تأثيرية، وإحداث تغييرات جوهرية في توجهات و سلوكيات فئات شعبية، وهو ما يمكن أن يفسّر إلى حد كبير عن طريق الاستعارة الفكرية التي تكمن فعاليتها في استدعاء الصور والمعارف والأفكار، فالمستمع يرفض مبدئياً الضلال والضياع، ويتوحّد مع فضاء الدين وتعاليمه الرحبة، وهو ما وظفّته السيدة الزهراء (عليها السلام) لتعزيز شرعية الخطاب، وهو ما يثبت أيضاً من جهة أخرى البعد الحجاجي للاستعارة كونها تهدف إلى إحداث تغيير في مواقف المستمعين عن طريق إقناعهم.

وقد تطورت النظرة إلى الاستعارة، بعد ما كان ينظر إليها على أنها مجرد نقل و استبدال، وأنها تقوم على علاقة وحيدة هي المشابهة، تقوم بإظهار وظيفة بلاغية وجمالية لا أكثر، إلا أنها تطوّرت بفعل النظرية التفاعلية، إذ بنت النظرية التفاعلية مسلماتها على أنَّ الاستعارة هي في التفاعل بين فكرتين، وأنها مسألة طبيعية في التفكير الإنساني والخطاب اللغوي اليومي، وتقوم على علاقات كثيرة إلى جانب المشابهة، وأنها تستطيع أن تجسّد العلاقة الحية بين البيئة وانعكاسها على الإنسان، إذ يشكل كل من الإنسان والبيئة استعارة كبرى، تنبثق عنها استعارات أو تصوّرات استعارية لا محدودة، ينتجها الإنسان في خطابه اليومي.

ولأنَّ الإنسان والبيئة عنصران استعاريان نادراً ما يفترقان، فالخطاب اللغوي يستعير كل شيء في البيئة لكل شيء في الإنسان والعكس، لأن ذلك التفاعل يؤدي إلى التماهي والامتزاج، حتى يصبح في الخطاب الاستعاري الإنسان هو البيئة، والبيئة هي الإنسان.

ومنه ما جاء أيضاً في قولها (عليها السلام) مستعيرة لفظ النار ومشتقاته الدالة عليه في قولها "فأنقذكم الله بأبي.. كُلما حشوا ناراً للحرب ونجَم قرن الضلالة، وفغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتّى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بحده ، مكدوداً في ذات الله ، وأنتم في رفاهية آمنون"[١٢] .

فالتركيز الاستعاري واضح في ذكر النار، وهي النار تُشتعل ويشتد انتشارها، فكلما زاد كفرهم اشتدّت وطأة النار واشتعالها، فلا يمكن أن تُخمد النار وما زال هؤلاء على حالهم، إذ إنها تشير إلى أنه لا مجال للأنطفاء مالم (يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بحدّه)، فالعلاقة مطردة بين النار واشتعالها ونتيجة أفعالهم التي أدّت بهم إلى هذا المآل.

وبناء على ذلك، فإنَّ الاستعارة المجال الجاذب، نظراً للدور المهم الذي تؤديه في نقل معاني النص، وذلك باعتبارها الركيزة الأساسية من ركائز الخطاب، غير أنَّ وجهة النظر الجديدة للاستعارة جعلتها تؤدي دوراً تواصلياً مهماً؛ لأننا نعيش ونتواصل في استخدام استعاري، فالاستعارة

الفكرية هي في فهم المجال التصويري، وهذا يعني أنَّ أساس الاستعارة يكمن في كونها تتيح فهم شيء ما، و تجربته أو معاناته، انطلاقاً من شيء آخر[١٣]؛ لأنها في الأساس هي عملية ذهنية تقوم على التقريب بين موضوعين أو وضعين، وذلك بالنظر إلى أحدهما من خلال الآخر، وكما نجد في الاستعارة البيئية كما ظهر عند السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) أنَّ طرفي الاستعارة تتكون من المجال المصدر والمجال الهدف، لأن الاستعارة في أساسها تقوم من حيث بنيتها على الإسقاط ما بين المجالات، و الإسقاط هو جملة من التناسبات الثابتة ما بين الوحدات في المجال المصدر والوحدات في المجال الهدف، فدور الإسقاط في قيام الاستعارة وهو عملية إسقاط التشابهات بين مجالين عنصراً بعنصر ومكوناً بمكون[١٤] .

ومن صور الاستعارة الفكرية ما جاء في دعاء السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام)، عقب صلاة المغرب، إذ جاء في قولها "**رب ارحم عند فراق الأحبة صرعتي، وعند سكون القبر وحدتي، وفي مفازة القيامة غربتي، وبين يديك موقوفا للحساب فاقتي، رب أستجير بك من النار فأجرني، رب أعوذ بك من النار فأعذني، رب أفزع إليك من النار فأبعدني، رب أسترحمك مكروبا فارحمني، رب أستغفرك لما جهلت فاغفر لي، رب قد أبرزني الدعاء للحاجة إليك فلا تؤيسني، يا كريم ذا الآلاء والاحسان والتجاوز**"[١٥] .

فالكلمة الاستعارية الأساسية في الكلام السابق متمثّلة بلفظة (القبر) بوصفها المحطة الأولى للإنسان بعد موته، ولفظة (النار) بوصفها المحطة النهائية بعد المرور بيوم القيامة وانتهاءً بالوقوف امام الله والحساب لما يوضحها المخطط التالي

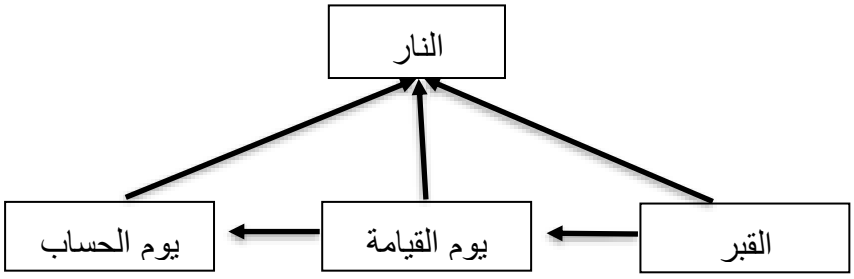

فإنَّ السيدة الزهراء (عليها السلام) تستجير وتستعيذ وتفزع إلى ما يقيها شرها وعذابها، وهذا ما ينعكس على دعاء الجماعة المؤمنة الصادقة التي تهبُّ إلى الله مستغفرة راضية بما كتب الله لها، وهذا ما يقرب الاستعارة هنا إلى جعلها من الاستعارات المفيدة، "فالاستعارة المفيدة تتسم بالجدة كونها تعمل على بيان الفكرة وتوضيحها بعمق واتساع لأنها تبرز المدلول في صورة مستجدة تزيده قدراً ونبلاً، حتى ترى بها اللفظة المفردة قد تكررت في مواضع، ولها في كل موضع معنى

منفرد، وهي تعطي الكثير من المعاني بإيجاز في اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدد من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواع من الثمر"[١٦] .

وهنا تكررت اللفظة الاستعارية البيئية، فلا يستطيع الإنسان الانفصال عن المكوّن المادي (النار)، إلا أنّ المعنى هنا فكري قائم على التصوّر و الإدراك. ففي التركيب الأول في قولها (رب أستجير بك من النار فأجرني) الطلب الواضح للمساعدة والعون في اتقاء النار وعذاباتها، فالاستعارة طلب الإبعاد لما هو مطلوب بشكل كامل قطعي، وفي التركيب الثاني (رب أعوذ بك من النار فأعذني) فالاستعارة ما يقرب إلى معنى الاستجارة، وفي التركيب الثالث (رب أفزع إليك من النار فأبعدني) ما يدلُّ على طلب الأمان واتقاء النار لنفسها وصون نفسها عما يمكن أن يقرب إليها من غير قصد، فلا تترك مجالاً للاستعاذة والاستجارة من النار إلا وأوردته بما يُشعر نفسها بالطمأنينة التي يرسّخها فعل الدعاء النابع من القلب الصادق الصافي، كما أنَّ تكرارها لأسلوب الطلب ما يعزّز في نفسها معرفة كرم الله عزَّ وجلّ المتمثل بالحصول على المغفرة بعد طلبها، لأنه توّاب يقبل التوبة لمن كان مؤمناً صادقاً.

ومن صور الاستعارة البيئية ما جاء في خطبة السيدة زينب (عليها السلام) في الشام قولها: "... **أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا على الله هوانا وبك عليه كرامة....**"[١٧]

عند انعام النظر في النص الزينبي أعلاه نجد أن السيدة زينب (عليها السلام) استثمرت الفاظ البيئة (اطراف الأرض) و (افاق السماء) لوصف حالها واحوال من معها من العائلة المفجوعة أنهم كانوا في أشد حالهم كحال الانسان الذي حاصروه من جميع الجوانب والجهات فمنعهم من كل شيء من شأنه ان يمدهم بالحياة فهم لا يستطيعون الخروج والتخلص من هذا الضيق، لقد استطاعت السيدة زينب (عليها السلام) عبر الاستعارة البيئية ان تصف لنا شدة الموقف و تأزمه معضدة ذلك بما قدمه (الاستفهام المجازي) من دلاله انكاريه خرجت الي غرض السخرية فلم تكن تنتظر الإجابة فيكون المعنى على وفق ذلك (لا تظن يا يزيد بفعلتك هذه ان لك كرامه على الله) مخاطبه إياه باسمه الصريح ولم تقل له يا امير المؤمنين وامثالها من كلمات الاحترام، وذلك توبيخاً واحتقاراً له، وتصريحاً بعدم اعترافها بخلافة ذلك الرجس، زد على ذلك انها رفدت هذا المعنى بالتقابل الدلالي بين لفظتي (هوان وكرامة) للدلالة على شمولية المعنى وعمق التجربة وشموليتها[١٨]

وللاستعارة البيئية حضور اخر في ادعيتها (عليها السلام) التي كانت تقرأها بعد صلاتها، و قد اخذت هذه الأدعية عن أبيها المرتضى (عليه السلام) فقالت: "**يَا عِمَادَ مَنْ لاَ عِمَادَ لَهُ، وَيَا ذُخْرَ مَنْ لاَ ذُخْرَ لَهُ، وَيَا سَنَدَ مَنْ لاَ سَنَدَ لَهُ، وَيَا حِرْزَ مَنْ لاَ حِرْزَ لَهُ، وَيَا غِيَاثَ مَنْ لاَ غِيَاثَ**

لَهُ، وَيَا كَنْزَ مَنْ لاَ كَنْزَ لَهُ، وَيَا عِزَّ مَنْ لاَ عِزَّ لَهُ، يَا كَرِيمَ الْعَفْوِ، يَا عَوْنَ ٱلضُّعَفَاءِ، يَا كَنْزَ الْفُقَرَاءِ، يَا عَظِيمَ ٱلرَّجَاءِ، يَا مُنْقِذَ الْغَرْقَىٰ، يَا مُنْجِيَ الْهَلْكَىٰ، يَا مُحْسِنُ، يَا مُجْمِلُ، يَا مُنْعِمُ، يَا مُفْضِلُ، أَنْتَ ٱلَّذِي سَجَدَ لَكَ سَوَادُ ٱللَّيْلِ وَنُورُ ٱلنَّهَارِ وَضَوْءُ الْقَمَرِ، وَشُعَاعُ ٱلشَّمْسِ، وَحَفِيفُ ٱلشَّجَرِ وَدَوِيُّ الْمَاءِ، يَا اللهُ يَا اللهُ يَا اللهُ، لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنْتَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ"(١٩)

إنَّ أول ما نلحظه في هذا النص الدعائي أنَّ السيدة زينب (عليها السلام) اتجهت عبر الاستعارة الفكرية في استخدام ألفاظ البيئة (الليل، النهار، القمر، الشمس، الشجر، الماء) نحو الجانب الوعظي، ذلك أنَّ الوعظ من أبواب الدعوة إلى الله، وأسلوب من أساليب الأمر بالمعروف في الجانب الديني، لكونه دعوة إلى الخير والطاعة والأمل في خير الآخرة وحب الله ورسوله، لذلك فإنَّ السيدة زينب (عليها السلام) في هذا الدعاء تستغفر الله وتعدّد الأشياء التي تقرّب الإنسان من رضاه وتذكره بإبداع الخالق لهذه الأشياء كلها، وتنادي بأجمل ما اتصّفت به ذاته جلَّ جلاله، فلا تأتي إلى ذكر ما هو غريب من اللفظ، بل إنها استحضرت ألفاظ الطبيعة لتخلق الانسجام بين الإنسان في تلاحمه مع عناصر الطبيعة الحية، عبر علاقة تبادلية تحدث في حياة الإنسان بشكل يومي، لكنها لا تقصد هذا المعنى القريب، فغالباً ما تكون الاستعارة مضمنة للمعاني البعيدة، فهي تستشهد بهذه المعالم الكونية لتدّب في قلب الإنسان المؤمن الخوف والخشية من غضب الله وعدم الامتثال لأوامره، وقد استثمرت السيدة زينب (عليها السلام) ما يدل على حاستي السمع والبصر فـ (سواد الليل، نور النهار ، ضوء القمر، وشعاع الشمس) تدل على حاسة البصر، و(حفيف الشجر) و (دوى الماء) تدل على حاسة السمع؛ ليكون مصداقاً لقوله تعالى:" **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** "(٢٠) ثم اختتمت الدعاء بتكرار النداء بـ(يا الله) ثلاث مرات لتأكد على اختصاص الله وحده لا شريك له بهذا الخلق المبدع الذي يدل على عظمة الخالق وإبداعه في خلقه.

وطبقا لما تقدم نجد أن السيدة زينب (عليها السلام) اتجهت نحو الناحية الوعظية من عبر الصورة الاستعارية التي رسمتها، فبالوعظ تليين القلوب القاسية، وتدمع العيون الجامدة، وتصلح الأعمال الفاسدة، وله صيغ متعددة التذكير والنصح والإرشاد والترغيب والترهيب " (٢١). ويشكّل الوعظ استحساناً جيداً لدى المتلقي لما يشتمل عليه من أساليب في الترغيب والتودّد والتقرّب للذات الإلهية.

فالصورة الاستعارية كما نجد ليست في باب التعليق والنقل وإنما هي عبارة عن وسيط للإدراك وتعميق التصوّر الذهني لعلاقة الفرد بمحيطه وبيئته الخارجية، "إنَّ أرفع أشكال الاستعارة

هي تلك التي يتبادل طرفاها التأثر والتأثير على نحو يفضي إلى خلق معنى جديد ناتج عن العلاقة المتفاعلة بين الطرفين"[٢٢].

إنَّ التفاعل الاستعاري الحاصل بين الإنسان و مكونات البيئة تستطيع أن تحدد طبيعة العلاقة بين مجال المصدر ومجال الهدف، فالمجال في المصدر ترصده السيدة زينب (عليها السلام) في ذكر ألفاظ البيئة، بينما مجال الهدف يكمن ما هو وراء تلك الألفاظ من توظيف للاستعارة الفكرية بما ينتج أو يُحقق التفاعل الاستعاري بين المجالين، فلكل مكوّن بيئي العلاقة المتواشجة في فيزياء الإنسان وتواشجه مع ماهيتها، فهو يحيا في ظل هذه المكونات التي تشكّل نمط حياته وتنظّم شؤونه وذلك كله بأمر الله عزَّ وجلّ، فلم يخلق شيئاً إلا وكان له الأثر البالغ في حياة الإنسان، لذلك فإنَّ الدعاء والتضرع باستخدام النداء الواضح الذي يخلق التقرّب إلى المخاطب ما يعزز الفعل الاستعاري الذي توظّفه السيدة زينب (عليها السلام) ؛ فهذا الدعاء يدبُّ في النفس الرهبة و الاستيقاظ من الغفلة.

فالتركيز على الاستعارة البيئية واضحة من خلال التركيز على التفاعل الحاصل بين علاقة الإنسان بمكوناتها المختلفة، وإن يختلف تأثره بها على الصعيدين المادي والمعنوي، وما تعزّزه السيدتان الزهراء والحوراء (عليهما السلام) عبر الأسلوب الاستعاري يُقرّب الفائدة الاستعارية من الكلام الموجّه إلى المخاطب، لأنهما تتحدثان بلغة إقناعية.

النتائج:

١. ان الاستعارة البيئية واقعية لا تقع في العالم الخيالي فلا يمكن اعتبارها زخرفة لغوية تقود الى اساءة العالم الواقعي الذي لا يمكن ادراكه الا عن طريق استعمال اللغة العادية لا المجازية فاستعمال اللغة الواقعية في التعبير الاستعاري الفكري يبدي الحقائق الواقعية كما هي حقيقية.
٢. ان معنى الفكري للاستعارة البيئية يتضح عن طريق السياق الذي تقع فيه اذ تصبح الاستعارة هي العنصر الذي لابد من ربط سياقين ربما يكونان بعيدين او قريبين لان النظرة السياقية للاستعارة ترى انها عملية خلق جديدة لما تقيمه من علاقات بين الكلمات.
٣. ان البحث عن سياق كل استعارة ينتج مجموعة من المفاتيح التي قد تحل الكثير من الغموض التي تتعلق بتفسير المفهوم الاستعاري وتأويله حتى لو لم تكن هناك مبادئ عامه للتفسير من خلال السياق.

٤. ان التركيز على الاستعارة البيئية التي عززته السيدة الزهراء والسيدة زينب (عليهما السلام) كان نتيجة التفاعل الحاصل بين علاقة الانسان بالبيئة عبر الاسلوب الاستعاري الذي يقرب الفائدة الاستعارية من الكلام الموجه الى المخاطب لأنهما تتحدثان بلغه اقناعيه.

المصادر

- القرآن الكريم
- خطب سيدة النساء فاطمة الزهراء، مصادرها وأسانيدها، مكتبة فخراوي، محمد المحمودي.
- الخطاب الوعظي النبوي، أحمد محمد، رسالة ماجستير، قسم الدراسات الأدبية والنقدية، كلية اللغة العربية، جامعة أم درمان، ٢٠١٢.
- تهذيب الأحكام: ج١.
- التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية، هادي سعدون هنون، رسالة ماجستير، كلية الاداب، جامعة الكوفية، ٢٠٠٨.
- البيئة ومشكلاتها، رشيد الحمد، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٧٩: ٢٤.
- بنيات المتشابهة.
- البلاغة والاستعارة، سعاد أنقار، مجلة عالم الفكر، مجلد ٣٧، ٢٠٠٩: ٣/ ١٨٩
- بحار الأنوار، جزء ٧٢.
- بحار الأنوار: ٤٥.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني
- الاستعارة وعلاقة الإنسان بالبيئة في ضوء النظرية التفاعلية، علوي الملجمي، مجلة مجمع اللغة العربية، جامعة البيضاء اليمن ،ع ٩، ٢٠١٥.
- الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، يوسف أبو العدوس، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، عمان، الأردن، ١٩٩٧،.
- الاستعارة القرآنية و النظرية العرفانية.
- الاستعارات التي نحيا بها، مارك جونسون وجورج لايكوف، تعريف عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩٦.
- مسند فاطمة الزهراء (ع عليها السلام)، جمعية العلامة السيد حسين كاني، راجعه وعلق عليه: محمد الحسيني الجلالي، دار الصفوة، ط٢، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧.

Sources

• The Holy Quran
•Speeches of the Lady of Women, Fatima Al-Zahra, their sources and chains of transmission, Fakhrawi Library, Muhammad Al-Mahmoudi.
•The Prophet's Preaching Discourse, Ahmed Muhammad, Master's Thesis, Department of Literary and Critical Studies, Faculty of Arabic Language, Omdurman University, .٢٠١٢
•Tahdheeb al-Ahkam: Part .١
•Artistic photography in the sermons of the Husseini march, Hadi Saadoun Hanoun, master's thesis, Faculty of Arts, Kufiyya University, .٢٠٠٨
•The Environment and Its Problems, Rashid Al-Hamad, National Council for Culture and Arts, Kuwait, ١٩٧٩: .٢٤
•Similar structures.
• Rhetoric and Metaphor, Souad Anqar, Alam al-Fikr Magazine, Volume 37, 2009: 3/189
• Seas of Lights, Part 72.
• Seas of Lights: 45.
• Secrets of Rhetoric, Abdul Qaher Al-Jarjani
• Metaphor and the human relationship with the environment in light of interaction theory, Alawi Al-Maljami, Journal of the Arabic Language Academy, Al-Bayda University, Yemen, No. 9, 2015.
• Metaphor in Modern Literary Criticism, Youssef Abu Al-Adous, Al-Ahlia Publishing and Distribution, 1st edition, Amman, Jordan, 1997,.
• Quranic metaphor and mystical theory.
• The Metaphors We Live By, Mark Johnson and George Lakoff, Definition of Abdelmajid Jahfa, Toubkal Publishing House, Casablanca, 1996.
Musnad of Fatima al-Zahra (peace be upon her), the Association of Allama Sayyid Hussein Kani, reviewed and commented on by: Muhammad al-Husseini al-Jalali, Dar al-Safwa, 2nd edition, Beirut, Lebanon, 2007.

الهوامش

(١) خطب سيدة النساء فاطمة الزهراء، مصادرها وأسانيدها، مكتبة فخراوي، محمد المحمودي، د. ت: ١٤٥.

(٢) الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف: ٤٤.

(٣) الاستعارة وعلاقة الإنسان بالبيئة في ضوء النظرية التفاعلية، علوي الملجمي، مجلة مجمع اللغة العربية، جامعة البيضاء اليمن، ٢٠١٥: ع ٩/ ٢٢١.

(٤) الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف: ٢١.

(٥) تهذيب الأحكام: ج١/ ٤٢٩.

(٦) البيئة ومشكلاتها، رشيد الحمد، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٧٩: ٢٤.

(٧) خطب سيدة النساء فاطمة الزهراء: ١٢٩-١٣٠.

(٨) بنيات المتشابهة، ص ٧٠.

(٩) بحار الأنوار، جزء ٧٢، ص ٦٠.

(*) بنو قيلة: هم الأنصار من الاوس والخزرج

(١٠) الاحتجاج: ١/ ١٣٣.

(١١) الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، يوسف أبو العدوس، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، عمان، الأردن، ١٩٩٧، ص ١٤٠.

(١٢) خطب السيدة فاطمة الزهراء ع عليها السلام: ١٨٢

(١٣) ينظر: الاستعارات التي نحيا بها: ٢٣.

(١٤) ينظر: الاستعارة القرآنية و النظرية العرفانية: ٦١.

(١٥) مسند فاطمة الزهراء ع عليها السلام: ٤٠٧

(١٦) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: ٤٢-٤٣.

(١٧) بحار الانوار :٤٥/ ١٣٣

(١٨) ينظر: التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية، هادي سعدون هنون، رسالة ماجستير، كلية الاداب، جامعة الكوفية، ٢٠٠٨: ١١١.

(١٩) بحار الأنوار: ٤٥/ ١٣٣-١٣٥.

(٢٠) الاسراء: ٣٦

(٢١) ينظر: الخطاب الوعظي النبوي، أحمد محمد، رسالة ماجستير، قسم الدراسات الأدبية والنقدية، كلية اللغة العربية، جامعة أم درمان، ٢٠١٢: ٦٧.

(٢٢) ينظر: البلاغة والاستعارة، سعاد أنقار، مجلة عالم الفكر، مجلد ٣٧، ٢٠٠٩: ٣/ ١٨٩